

طبيب وروائي مصري مريض بالتجريب

محمد المنسي قنديل

صانع المُتعة يطل من المهجر بقصص المهمشين



● رواية قنديل "وادي الملوك" التي تم تحويلها إلى عمل درامي من بطولة النجمة سمية الخشاب، تحكي جوانب من قصة اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون في الأقصر، وكيف غير هذا الحدث من وعي المواطنين وأقام جسورا بينهم وبين العالم الخارجي.



● رواية قنديل "وادي الملوك" التي تم تحويلها إلى عمل درامي من بطولة النجمة سمية الخشاب، تحكي جوانب من قصة اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون في الأقصر، وكيف غير هذا الحدث من وعي المواطنين وأقام جسورا بينهم وبين العالم الخارجي.

مصطفى عبيد
كاتب مصري

التفرد في الكتابة يعني تحررا كاملا، وانحيازًا تامًا للجمال، ومحاولات لا تنتهي للتجريب، وسعيًا حثيثًا للتطور وتجويد الصناعة الفنية. ما يُميز الأديب المصري محمد المنسي قنديل، هو أنه قليل الإطلاقات الإبداعية، وعظيمها من حيث التأثير.

احتفى المجتمع الثقافي في مصر أخيرا، عبر وسائل التواصل الاجتماعي، بتعاقد قنديل مع دار الشروق على إصدار رواية جديدة له بعنوان "طبيب أرياف" يسرد فيها جانبًا من حياته الحائرة والمتذبذبة بين الأدب ومهنة الطب.

وجاء الاحتفاء انطلاقًا من حسن اختيار أعمال الرجل، والتجاوب الدائم للجمهور معها، خاصة أنها تقدم سردا واقعيًا يوصل لجانب من التاريخ المصري الحديث، وتستخدم لغة حية منطوقة قادرة على الوصول إلى قلب وعقل القارئ وملازمة ذائقته للجمال. كما أن غياب الرجل عن المشهد العام وهجرته إلى منفى اختياري في مونتريال بكندا، جعل طلته محل اهتمام.

الولع بالتجريب

يبدا قنديل، وهو يعبر عقده الثامن، كتابات في العشرينات، ما زال مولعا بالتجريب، وهي صفة حاكمة لشخصيته منذ بداية مشروعه الأدبي، حيث قال وكتب إن "التجربة هي أكبر إغراء له في



● فيلمه "فتاة من إسرائيل" بطولة محمود ياسين، ورغدة، جعل قنديل يشعر في النهاية أن الأدب، وحده، يمكن أن يحقق تأثيرًا كبيرًا دون تحويله إلى عمل فني



احتكاك الطبيب المباشر بالفقراء والمحتاجين في وحدات التأمين الصحي بمحافظة المنيا، جنوب القاهرة، يفتح مدارك قنديل للتعرف على قطاع واسع من البشر المهمشين والمنسحقين تحت وطأة الفقر والجهل والأمراض الفتاكة، ومن ثم استحضارهم ورسمهم في أعماله الأدبية

بمعنوان "وادي الملوك" بطولته سمية الخشاب، وصابرين، ومجدي كامل، ومن إخراج حسني صالح. وتحكي الرواية جوانب من قصة اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون في مدينة الأقصر، جنوب مصر، وكيف غير هذا الحدث من وعي المواطنين وأبان هويتهم وأقام جسورا حقيقية بينهم وبين العالم الخارجي، بعد أن عاشوا قرونا في ظل غياب تام ونسيان واضح خاضعين لنظرة فوقية استعلائية من الغرب أو من حكام البلاد. وتوالت إبداعات الرجل ليصدر رواية "أنا عشقت"، ثم رواية "كتيبة سوداء"، فضلا عن كتاب "شخصيات حية من الأغاني"، مع العبد من كتب الأطفال القصصية مثل "حكايات صغيرة لريم"، و"سندباد في مدينة القرنفل"، و"رحلة على أرض الأفكار"، وغيرها من الأعمال.

وللمبدع رواية ضائعة بعنوان "جواز سفر" كتبها من وحي عمله كمراسل متجول مجلة العربي في مختلف أنحاء العالم، وقد فقدت منه مع مجموعة من أوراقه، ما أصابه بحسرة شديدة. وانفعل الرجل مع احتجاجات يناير 2011، ومناصرتة للشباب، ثم أحبط مما آل إليه الحال بعد ذلك، حيث صدمه استيلاء الإخوان على الحكم ولجوء الجماعة إلى الإرهاب، ما دفعه للقول في ما بعد بأن ثورة يناير ليست ثورة، وإنما مجرد صحوة، وهبة عفوية، لأن شيئا لم يتغير أو يتحسن، والشارع ضاق ذرعا بالسياسة، وصار مهموما أكثر بالأمن والاستقرار. يرى قنديل أن الغياب والاعتزال ضرورة للتأمل والتدبر وملازمة حدود الثقافات الأخرى، لذلك فضل الهجرة إلى مونتريال، ومنها يعود لشهور قليلة يقضيها في مصر.

الذين أتوا إلينا في عالم السينما كانوا كتابا من الدرجة الثانية، ولم يات إلينا من كتاب الدرجة الأولى سوى نجيب محفوظ، ولا أدري لماذا جعلني هذا الأمر أصغر على الكتابة للسينما أكثر من مرة، لكن اكتشفت أنها سينما مريضة تقوم بطرد المبدعين". ورغم تحويل إحدى قصصه إلى فيلم آخر حمل اسم "فتاة من إسرائيل" بطولة محمود ياسين، ورغدة، وفاروق الفيشاوي، من إخراج إيهاب راضي، إلا أنه شعر في النهاية أن الأدب هو الوعاء الأوسع الحاوي لكل إبداع وفن، والقصة يمكن أن تتحول إلى دراما أو مسرحية أو فيلم سينمائي، ويمكن أن تحقق تأثيرا كبيرا دون تحويلها إلى عمل فني.

وانطلق قنديل محلقا في مجال الرواية بعد النجاح اللافت لأولى رواياته التي حملت عنوان "انكسار الروح"، فكتب بعدها رواية "قمر على سمرقند"، والتي فازت بجائزة ساويرس بمصر في الأدب سنة 2006، وترجمت إلى اللغة الإنجليزية. ونشر في عام 2009 روايته "يوم غائم في البر الغربي"، والتي وصلت للقائمة القصيرة للبوكر العربية في العام التالي، وتم تحويلها في ما بعد إلى مسلسل تلفزيوني.

دفعت فكرة التجريب بالأدب إلى كتابة أول فيلم سينمائي للمطرب عمرو دياب وهو فيلم "أيس كريم في جليم" سنة 1992 من إخراج خيرى بشارة. قال عن ذلك "لقد أهدرت كثيرا من الطاقة بعيدا عن الرواية، وأشهد أنني فشلت في اختراق عالم السينما كما كنت أتمنى، وعدت بهزيمة ساحقة والعديد من السيناريوهات التي لم تنفذ، كنت أريد أن أفعل شيئا كما فعل نجيب محفوظ، لكن ماذا أفعل مع سينما مريضة ترفض أي تجديد". وتابع "في إحدى المرات التي قابلت فيها الممثل الشهير عمر الشريف، قال لي في أسف إن كل

وحدات التأمين الصحي بمحافظة المنيا، جنوب القاهرة، مدارك قنديل للتعرف على قطاع واسع من البشر المهمشين والمنسحقين تحت وطأة الفقر والجهل والأمراض الفتاكة، ومن ثم استحضارهم ورسمهم في أعماله الأدبية.

يبدو أن إغراء الأدب انتصر سريعا على إغراءات مهنة الطب، فلم يلبث أن قرر في إطار ولعه بالتجريب اعتزال الطب نهائيا، وهو ما زال في الثلاثينات من عمره، والتفرغ التام للكتابة الأدبية.

في تلك الأثناء تعاقبت معه مجلة "العربي" الكويتية ليصبح مراسلا متجولا لها في كثير من بلدان العالم، ما أقل ثقافته ووسع مداركه ومنحه القدرة على الإطلاع والتعرف على ثقافات وشعوب وأفكار متباينة، وانضح حسه الأدبي، ثم قاده إلى محاولات تجريب متعددة.

سينما ضد التجديد

برع قنديل في كتابة مجموعات قصصية لافتة مثل "من قتل مريم الصافي"، و"احتضار قط عجوز"، و"بيع نفس بشرية"، و"أدم من طين"، و"عشاء برفقة عائشة"، فضلا عن كتاب تاريخ قصصي بعنوان "تفاصيل الشجن في وقائع الزمن".

دفعت فكرة التجريب بالأدب إلى كتابة أول فيلم سينمائي للمطرب عمرو دياب وهو فيلم "أيس كريم في جليم" سنة 1992 من إخراج خيرى بشارة. قال عن ذلك "لقد أهدرت كثيرا من الطاقة بعيدا عن الرواية، وأشهد أنني فشلت في اختراق عالم السينما كما كنت أتمنى، وعدت بهزيمة ساحقة والعديد من السيناريوهات التي لم تنفذ، كنت أريد أن أفعل شيئا كما فعل نجيب محفوظ، لكن ماذا أفعل مع سينما مريضة ترفض أي تجديد". وتابع "في إحدى المرات التي قابلت فيها الممثل الشهير عمر الشريف، قال لي في أسف إن كل

بروحه الإبداعية، مُلقا معها واستغرق الأمر منه وقتا طويلا للتخلص من انقاله والتحرر تماما في تجارب أخرى بانماط إبداعية جديدة.

ميلاد الموهبة

ولد قنديل في مدينة المحلة الكبرى، بمحافظة الغربية شمال غرب القاهرة عام 1949، وهي المدينة ذاتها التي خرج منها كتاب ومثقفون كبار مثل، جابر عصفور، ونصر حامد أبو زيد، وسعيد الكفراوي، واشتهرت، ولا تزال، بصناعة المسوجات، حيث تضم أكبر تجمع لتلك الصناعة في مصر.

كان والد الأديب أحد الصناع المحترفين في مجال النسيج، ويملك ورشة كبيرة تقوم على صناعة النسيج اليدوي من خلال الأنوال، يعمل بها عدد كبير من العمال، إلا أن إنشاء حكومة ثورة يوليو 1952 لمصنع ضخم للنسيج أدى إلى إغلاق ورش الصناعة البدوية، بسبب تفضيل العمال العمل في المصنع الحكومي، ما جعل الرجل يجلس وحيدا في ورشته دون عمل. وكما حكى الأديب المصري في ما بعد، فقد كان والده يُبذل وحده وفراغه بأن يطلب من ابنه الصبي أن يقرأ له قصص وروايات الأدب العربي والعالمي، بدءا من حكايات أرسين لوبين، وشارلوك هولمز، وحتى روايات جرجي زيدان، ورافائيل سبانتيني، وغيرهم، ووقتها ولد عشق الأدب في قلب الصبي اليافع، وبدأ محاولاته الكتابة تجريبية إنسانية خالدة.

التحق قنديل بكلية الطب جامعة المنصورة، شمال غرب القاهرة، وانسحق مع أبناء جيله بهزيمة العرب أمام إسرائيل في يونيو سنة 1967، ومثلت تلك الهزيمة ضربة شديدة للقوة لإحلامه وطموحاته، وانسحق بالبحث عن أسباب الهزيمة في كتب التراث العربي، فعاد إلى كتب الأغاني، والعقد الفريد، وتاريخ الخلفاء، وغيرها من المؤلفات الخالدة، وحاول نبش جراح العالم العربي باستحضار مشاهد التاريخ المضيق، ووقائع التحولات الحزنة.

كتب قنديل وهو طالب قصته القصيرة "أغنية المشرحة الخالية" التي جسدت مشاعر طالب طب فقير، ونشرت في ما بعد في العديد من المجلات الثقافية ولاقت إعجابا كبيرا، وقام بضمها إلى مجموعة قصصية بعنوان "من قتل مريم الصافي" التي فازت سنة 1988 بجائزة الدولة التشجيعية في الآداب. فتح احتكاك الطبيب المباشر بالفقراء والمحتاجين في

هذا العالم". من هنا يُشرب الرجل ويُعرب ويُجرب كل جديد، وكل مُستحدث، مفضلا السير في دروب لم يطرقت من قبل، ويدخل في أنماط جديدة كل يوم، ويبحث عن اختلاف وتفرد، كاسرا ملل القراء ورتابة الاعتياد.

تجاوز هذه السمة الأصلية أساليبه الإبداعية، وتمتد إلى حياته الشخصية ككل، فهو يُجرب العمل طبيا في أماكن ريفية، ثم يعمل في القاهرة المزدهمة والمتخمة بالمنازج المتنوعة، ثم يجرب اعتزال مهنة الطب تماما، والتفرغ للكتابة، ويُجرب أدب الرحلات، ثم كتابة السيناريو السينمائي، ويُجرب أيضا كتابة قصص الأطفال، ثم نجده يُجرب الهجرة والاعتزال ويواصل التعلم من جديد للتأقلم مع المجتمع الكندي.

سلسلة لا تنتهي من التجارب والمحاولات لتحقيق الذات عبر حقول عدة لا تعترف بسنن، ولا تتقيد بمجتمع، غير أن هناك مظلة حاكمة لكافة محاولات التجريب تكمن في الولع والبحث عن الجمال، والسعي الحثيث نحو سعادة البشر من خلال مساندتهم بالطب، وإمتاعهم بالكتابة الأدبية. ثمة تصور آخر يراه الرجل ويُكرهه في أحاديته مع الأصدقاء والقراء، وهو الرغبة في العيش طويلا، لذا فكثيرا ما يردد مقولة الأديب الأرجنتيني خورخي لويس بورخيس التي تقول "الأدب مثل المراهب، ومثل الجنس يطيل العمر".

يرى أن الأديب يعيش حيوات عدة، فكل قصة أو حكاية يُقدمها يعيش فيها، وكل شخصية يُقدمها يأخذ عمرها ليضيفه إلى عمره، ويعني ذلك أن الأديب طويل العمر لأن عمره على الأرض يتجاوز عمره الفسيولوجي، فمبدع مثل نجيب محفوظ المولود عام 1911، ما زال حيا رغم رحيله منذ 14 عاما.

يتصور البعض أن الرواية الجديدة التي لم يُصغ عن تفاصيلها بعد، تحكي قصته عندما كان طبيا في الوحدة الصحية في ريف مصر، عقب تخرجه في كلية الطب سنة 1975، ومعابسته لأوجاع الفلاحين والبسطاء واقترابه من حيواتهم وتأثره بمعاناتهم لتمثل جزءا ثانيا لروايته "انكسار الروح".

وقدمت هذه الرواية جانبًا من حياته وهو طالب خلال حقبة السبعينات وما حفلت به من تحولات سياسية، وصعود التيارات الدينية، وانحطاط للقيم الأخلاقية وشيوع لفكرة الثراء السريع، ولسيادة سمات الفهلوة والاستغلال والاحتيايل في المجتمع المصري.

اعترف الأديب في إحدى حواراته الصحافية أن هذا العمل هو الرواية الأساسية التي تفرغت منها جميع مؤلفاته، حتى وإن لم يلحظ القارئ ذلك، وقد كتب فيها عن شخصيات مقربة جدا عرفها وعاشها في الواقع، ومن خلالها بدأ تجريب رسم عوالم جديدة للشخصيات ومد خيوط جديدة متخيلة داخل الحكى. وقال الرجل إن هذا العمل ظل لصيقا